قراءة في "الياطر"

التجربة تصنع الرجل... والمرأة تفجر إنسانيته

(أنا زكريا المرسلي رابط الحوت في الماء، الراقص على ظهره في الماء الذي تحدثت عنه الاسكندرونة وعن فعلته ، أهل مدينتي نسوني . . . ربطت لهم الحوت ونسوني . . . وغدا اذا جاء حوت آخر يذكرونني).

بهذه الكلمات القلية يمكن ان نلخص قصة البطل الذي صاغه حنامينه من ابسط المعادن واكثرها نقاء، لأن قيمة البطل في (الياطر) ، لا تأتي من براعة صنعه فقط، وانما من كونه يتجاوز حدود الزمان والمكان رغم ارتباطه العميق بهما ، الارتباط الذي يدخل في صميم الشخصية ، ويكون نسيجها العام . إن الوجه الانساني لزكريا المرسلي المعزول عن انسانيته ، في مدينة عاهرة ، والذي سيعود اليها بعد رحلة عذابه في الغابة التي ستنقي جسده وروحه هو الذي يدفع هذه الرواية الى رحاب الآداب الانسانية الكبرى . . .لقد دق حنامينه باب العالمية بروايته هذه بكلتا يديه دون ان يغفل الخصائص المحلية المميزة لبطله ولعالم الرواية الداخلي الذي حضن رحلة البطل وفجر صراعاته . . (لعنت في سري المدينة والحوت وزخريادس واولاد الكلب الذين حرضوني عليه ، بدا لي أن الحياة حلوة هكذا ، دون ذهب ولا ماس ، دون بيت ولا زوجة ولا ولد ، كل هؤلاء اعداء على نحو ما ، وليس لي صديق الا البحر هو وحده الذي يقبلني ويعرف سريرتي ، ويقدر أن يغسلني من خطيئتي).

لقد أخطأ زكريا ، قتل زخريادس الذي اغتصب تعبه ، هم دفعوه الى القتل وسموه مجرما ، وظروفه هي التي قادته الى القتل ، لم يكن يضمر ذلك في نفسه وهو الذي كره ولده الوحيد لأنه قاتل ، لكن الانسان نتاج اجتماعي ، محصلة لمجموعة علاقات ، تتشكل وفق الظروف المحيطة به ، ظروف زكريا كانت سيئة جدا ، في مدينة تقوم على الاستغلال لقد حاولوا استغلال صدقة اغتالوا براءة واقدام الصيادفيه،بساطته واندفاعه نحو حقه المهضوم . كرش زخريادس اغراه ، اغراه ، هذا الكرش الذي بلع الفضة والماس والذهب الذي اخرجه زكريا من قلب الحوت ، الكرش الكبير هو السبب في هرب زكريا من مدينته التي احبها لاحقه الخوف . . . الى اين سيذهب الى البحر صديقه الوحيد الذي يحفظ سره ، الى الغابة التي لا يعرفها . الندم يلاحقه (يا إلهي انا الضخم كجاموسة الجاف كزيتونة احرقها الصقيع احس وربما لأول مرة في حياتي بالرغبة في أن اركع واصلي). ندمه يقتله ، انه الانسان على نحو ما ، لقد تبدل فيه شيء ما، ان ما اقترفه فجر فيه نبعا شحيحاً ، في الصخرة التي في داخله قطرات منه ، اذابت قسوته ، غسلت ما حول القلب ، شقت لها مجرى حتى بلغت رأسه المثقل بعبء جريمته ، الى الغابة يا زكريا . . . هناك ستعيش ستلاقي الويلات تعاني غربتك وحيداً ، منبوذاً . زكريا يتحول لقد بدأ يفهم معنى الجوع وكيف يسجن رجل من اجل رغيف ، هناك شاهد المحبين فتعلم معنى الحب ، خاض معارك قاسية أثبت فيها رجولته البحرية لكنه اصبح جرذاً مرة وبرميلا مثقوباً مرة اخرى ، وقواداً . . ولكن ثقته بنفسه سرعان ما كانت تعود اليه ، انه الصياد الماهر ، ابن البحر الذي يعرف كيف ينتصر على عدوه ، اخلاقه اخلاق بحار ، لا يعرف الجبن (لا يقبلك البحر الا اذا كنت شجاعاً وما عليك الا ان تقاوم) لقد رفض ان يقتل حارس المنارة ، فيشرد زوجته ، رفض أن يسرق المحفظة ، رغم حاجته للنقود الموجودة فيها . روحه كانت تطلب روحا ، شيئاً حياً يراه ، يسمعه، يضع يده بين يديه ، يحس بوجوده ، يغريه بحركة ، اغتالته الطبيعة فكرهها، اغتالت الشيطان فيه ، كان منسجماً مع شيطانه كان ذلك الشيطان ملائماً لجسمه وروحه . . .

الحصار :

(خذوني او تعالوا ، افعلوا شيئاً من اجلي ، اقتلوني ولا تدعوني هكذا منبوذاً يا أسماك البحر ، ايها البحارة والصيادون ، انا جاركم وحدي . . .).

الغابة جدران رصاصية تضغط على صدره هي لم تقبله كما قبله صديقه البحر ، لذلك كان يهرب اليه ، يناجيه، يتوحد معه هرباً من قسوة الغابة ، البحر صديقه الوحيد ، يعطي دون حساب ، الغابة تطارده تحرمه من أوليات الحياة تعضه بانيابها الحادة . المرسلي مطارد من داخله أيضاً ـ رغم الظروف الخارجية السيئة المدينة التي نسيته ودفعته للقتل ، الغابة الظالمة التي لم تقبله ، قلة

الطعام ، المشاكل اليومية ، ومن الداخل الخوف ، الندم ، الرهبة ، الحس الانساني المتفجر في الصدر الذي ما كان ينمو عند زكريا لولا ظروفه الجديدة بعد القتل . . .

لقد وفق الكاتب في تجنب الاغراءات البوليسية التي تشبع حاجة المطاردة الخارجية وتقودنا للانزلاق الى ساحة الجذب البوليسي والتشويق الفارغ ، لقد آثر الكاتب صيغة اخرى للجمال الذي يجسد هذه المطاردة العنيفة من الداخل والخارج ، وهي صيغة الخطوط المتوازية ، فتارة نشعر ان القوة المطاردة هي نفس البطل المنفصلة عنه لتصبح عدواً له ، وسوطاً يجلد روحه ويفجر عذابه الداخلي ، ومرة اخرى نلمس خطاً آخر هو ظرف القتل الذي دفع اليه وقسوة الغابة ، وصوت الدرك ، وكثيراً ما تختلط الخطوط لتشكل في النهاية العنصر الغائر في نفس البطل الذي لا يستطيع قهره مهما فعل من اجل ذلك . . .

لقد قهر زكريا ضعفه الجسدي ، خرج معافى بعد قتل الكلب حتى لحظات اليأس من الشفاء والحس بدبيب الموت كان يقابله بالتمسك بالحياة والسعي لأجلها بمجهود أخير ، لقد كان يتعامل مع جسده بوحشية ، ينفصل عنه يتعامل معه كأنه جسد بغل ، ألمان عاشهما زكريا : الم نفسي ، وألم جسدي ، وعندما تصبح المواجهة ذات وجهين الماضي والحاضر ، القتل ، ومواجهات الحياة الجديدة ، الغابة والأزمة التي قادته اليها جعلت من زكريا الذي يملط رأس العصافير ولم يكن يفهم لغتها ، لقد جعلت منه المحنة شيئاً آخر مختلفاً تماماً ، أن زكريا الذي يضرب ولده حتى الموت يصبح رقيقاً ، صافياً ، محبا حتى لولده القاتل ، لا لأنه من صلبه بل لأنه يتعذب مثله ، ان زكريا يتحد مع المعذبين ويعاني آلامهم ، لقد اتسع افقه اصبح اكثر رحابة ، خرج من حدود ذاته الى تخوم العالم . زكريا الذي كان وحشاً صار من بني آدم ، تاب ، علمته الأيام ، صار عجوزاً نذر نفسه لزوجته صالحة ، حتى السمكة التي كان يقتلها تركها تنام وتحلم على الرمل ، هي التي ماتت بسرعة . . . .

انه زكريا نفسه الذي قتل زخريادس وضرب وحيده حتى الموت يتعامل مع سمكة بهذه الانسانية الشفافة . ما هذه المفارقة ؟ انسان ذو طبيعتين : في البحر إنسان ، في البر وحش يملط رأس العصافير (ولكن الكلب نفسه لا يستمر في الركض وذنبه بين خلفيتيه والأحجار تلاحقه ، يقفز ، يعوي ، يعض ، وسأعض ، هالك على كل حال ، لن اهلك وحدي لن افطس دون ان اخربش ، القط المحصور يخرمش ولست اضعف ولا أجبن منه ، اذا فرض علي ان اكون قاتلاً او مقتولاً . . . لا بل اكون قاتلاً) . زكريا يشف ، يرق ، عندما تتوفر الظروف الصحيحة ، يصبح وحشاً قاتلاً ، عندما يفرض عليه ذلك . انه الرد العفوي على طبيعة الحياة في ظل الظلم واللاعدالة ، شخصية مزدوجة ، متناقضة ، لكن المرسلي لا يعرف الفلسفة ، حكيمه الوحيد (عيعوب) فمن أين جاء التركيب المعقد لهذه النفس الضائعة؟ ولن سرعان ما تكتشف ان المرسلي امتداد للحياة بكل ما فيها من قبح وجمال ، من دناءة ورفعة ، اليست الحياة تحمل القسوة والرقة معا . . . ؟

الولادة : « وداعا يا زكريا . . . مات زكريا ، الأفضل ان يموت ، سأدفنه بغير اسف ، ومعه أدفن كل علاقة بالمدينة ، ومثل جدي بعد زوجته الأولى ، ابدأ من جديد بزوجة جديدة ، الغابة زوجتي ومعها أعيش يا غابتي ، يا رفيقتي أنت بيتي وفي الأخير قبري ، لن اهجرك ؛ وارجع الى مدينتي العاهرة » .

لقد اصبحت الغابة مدينته ، صارت عالمه ، الفها ، احبها ، لم تعد رصاصية تضغط بثقلها على صدره مثلما كان يحس بها وهو خارجها أو أثناء صراعه من اجل الحياة في منعرجاتها ، انه يحبها ، ليس لأنها قبلته ، كما قبله البحر فقط ، انما لأنها كانت المزود الذي ولد فيه من جديد ، لقد اصبح . يحلم ان يكون له فيها مكان ، شبر من الأرض ، لقد تبدل زكريا نهائياً ، رجل جديد ، قلب جديد ، هذا ما فعلته شكيبة قوة الكشف والتحويل ، قوة التفجير الذي هدم حياة زكريا القديمة واعاد اليها صفاءً جديدا ، جعلها روحاً هائماً على وجه الماء . « صوتها كان متهدجاً ، متلعثماً ، والقرمز على الوجنتين والعنق والتماعة العينين ، تبرق بضراعة محيرة ، مهيجة ، كل ما فيها غدا مطاوعا ، تحت غشاء من التظاهر بالتمنع » . انها الأولى في حياته والتي كانت تحظى باعتبار الانسان منه ، وتنتزع المودة من ضعفه ، ومن شعوره بأنه مدين لها بوجودها قربه وبالخبز الذي تحمله له وبالعاطفة التي ذوبتها دبساً وماء في القرعة التي في يديه . .

صالحة امرأة جيدة ، وزوجة فاضلة ، الا ان جسدها قد ترهل ، لم تعد تشبع . إنه زكريا يريد الآن علاقة خارج اطار الزواج الذي يحد من تطلعه نحو مطلق عاطفي ، لقد علمته ذلك شكيبة بوهجها ، ودعته يعود الى مفاجأة البحر بعد أن اصبح كفؤاً له :

منك العتابا ومني الميجنا : يا بحر كل العيون عيون . . . . وانت عيوننا . . . . . صيادك عاد اليك . . . . لقد كان ثقيلاً بغيضا ذلك الواجب الزوجي اللعين ، من اين تعلم زكريا ذلك ؟! . . . سيعود الى صالحة دون ان يعضها ، سيغتسل ويحلق شعره ، ولن يجامعها دون رغبتها ، لن يضرب (عبعوب) . . من اين كل هذه اللباقة ، والرقة والشفافية ، زكريا . . . كيف تغيرت ؟؟؟ انت الذي قضيت حياتك في أحضان أم زخرياس .

الخلاص : « لا بد من قرار ، الى الداخل ، ام الى الخارج ، لا استطيع اجتياز البحر ، وعلى البحر ينتظرونني ، فماذا افعل يا ربي ، ماذا افعل . يا ناس ، يا امي يا ابي ، لماذا ولدتني ، يا دنيا يا عاهرة ، يا عاهرة ، العاهرات انت ، ماذا فعلت لك حتى بلوتني هذه البلوة » . . . . . ضربته الحياة بيد ثم قدمت له يدا اخرى قدمت له حياة جديدة كاملة ، شكيبة « الحب » كانت خلاصة ، بدايته ، حلمه المستقبلي ، شبابه الفائت ، لقد اعادت تشكيل نفسه ، خلقتها بعدما كاد العدم يفنيها . بنت له

عالما جديدا نقيا ، سيحمل اليه صالحة وعبعوب وزخريادس وامه الساقطة ايضاً ، حيث ستتم تنقيتها ، لقد كانت سعادته غامرة بها ، ليست لأنها سترته بعد عري وسقته بعد عطش ، واطعمته بعد جوع ، بل لأنها اعادته الى الحياة ، « جويجته » الغالية ، معها أصبح يحلم ببناء بيت وشراء فلوكه وانجاب اطفال ، انها خلاصة الداخلي ، معها فقط كان ينسى مقتل زخريادس ، ومعها فقط كان يجد انسانيته الضائعة. لقد سترت شكيبة الجسد منه والروح ، زكريا في الخيمة التي ستصبح عما قريب بيتا مصنوعا من غصون الأشجار ترفرف فوقه عصافير الحب وتغسله الشمس بأشعتها ، زكريا رجل آخر تماماً انه رجل المستقبل يرقب بيته وحياته ، تشاركه البناء شكيبة ، الوجه الآخر لحقيقة الانسان فيه . . لقد اصبح طموح البطل اعادة بناء الحياة بصورة عادلة ، بعد ان حصل على علاقة عاطفية تقوم على تكافؤ عقلي وشعوري ، لقد خطا خطوة اعمق نحو استعادة جوهره ، لقد وفرت له شكيبة (الحب) جمالاً روحياً وقدرة عظيمة فجرت عقله ايضاً حيث ان عبعوب لم يعد حكيمه الوحيد والمحامي لم يعد اكثر قدرة منه على الكلام ، لقد كانت علاقته بشكيبة قصة حب حقيقية تسجلها الحياة انتصارا ضد ظروف القهر والهزيمة التي يفرضها صراع الانسان مع الطبيعة والمجتمع والذي سيبقى مستمراً ما دام الجنس البشري قائما . . . . في المدينة تشكل المرسنلي هو نتاج ظروف معينة ، نسج لها ، الا انه يحمل خصوصية ما فردانيته تميز ، في البركان كذلك وفي الغابة كان . . . . . ومع شكيبة بعد تحولاته الجذرية ، حمل فردانيته لذلك احبته شكيبة ، التي غيرته ، بدلت معتقداته التي زرعها في رأسه عبعوب ، هذبت سلوكه ، احبته ربما لأنه وحشي او لأن احداً في القرية لا يشبهه او لأنه قرر في اللحظة الأخيرة وفي قمة حبه لها ان يهبها لزوجها «آه لو تبقى شكيبة اه لو تبقى معي كنت انسي عذابي ومدينتي ، كنت اراها كل يوم نتحدث ، نعمل ، نسير في الغابة ، نبني بيتا ، ننشيء في الحديقة ، ونضع القارب ، كنت آخذها فيه ، اجلسها على طرفه ، واجعلها ترخي قدميها في البحر فاغسلهما ، وفي الجبل احملها على كتفي وفي امسيات الصيف نستلقي على عشب الغابة نعد النجوم ونتنزه بضوء القمر» .

هذا هو العشق . . . . . يا إلهي هذه هي البلوة التي خبأتها لي،ان اصير عاشقاً في الأربعين من عمري ، وأخضر مثل عود النعاع انا البلوطة اليابسة » .

ان بساطة شخصية زكريا ونقاء شخصية شكيبة (التفجير الانساني) ما هي الا اقنعة فنية يستخدمها الكاتب ليقدم لنا شخصيات تصارع ذاتها ثم تصارع العالم بغية تحقيق وجودها من خلال شروط انسانية افضل . لقد اصبح المرسنلي عاشقاً جديداً ، اراد الموت على الهزيمة وخاصة امام شكيبة التي رفضت ضربه لأن النساء في الجبال لا يضربن الرجال بل يقتلنهم ، لقد قتلته شكيبة . . . ان صراعه الداخلي امامها كان قمة انسانية وروعة انفجاره ، انه عاشق من نوع اخر ، عاشق بحار ، صياد ، ليس كابن المدرسة ، لقد فضل الموت على الهزيمة لكن شكيبة كانت اغنى ، اكثر انسانية منه وعلى يديها وجد اسعافه ، لقد غسلت قميصه الممتزج دماء ودموعاً بعد ان غسلت روحه ونقتها ووهبته خلاصه الأبدي .

ان شخصية المرسنلي ما كانت لتكشف عن نفسها وعن غناها الروحي الا من خلال مرحلة الصراع الداخلي هذه ، ففي شخصيته كانت تكمن قوة قادرة على تحرير نفسها من كل اشكال العبودية ، هذه القوة كانت بحاجة الى الكشف فجاءته من شكيبة ابنة الجبل البسيطة كصليب ، النقية كقطرة ندى . لقد كان تطور شخصية المرسنلي مرتبطا بتغيير الوسط الذي حمل صراعاً مزدوجاً فجر كل هذا الغني الوحي في شخصية البطل ، ان الصراع مع المجتمع ممثلاً بزخريادس جعله يهرب الى الغابة ، وصراعه مع الغابة ولقاءه مع شكيبة اعاد خلقه من جديد ، ليعاود دورة حياته تاركا الغابة مبتعدا عن شكيبة بعد ان نادته مدينته العاهرة التي نسيته والتي عاشت في لاوعيه طيلة رحلة عذابه . لقد هاجمها الحوت مرة اخرى وعليه ان يعود اليها رغم كل شيء، ما كان بوسعه وهي في محنتها ان يكون خارج المحنة ، لقد قل الرجال في المدينة ، ولكن مدينته يعرفها صامدة مقاومة لا تهزم ولو حاصرتها حيتان وعواصف العالم ، وبدون وعي او تفكير يقرر العودة وكأنه يكتشف فجأة ان غربته كانت موقتة وان هروبه من الدرك من الناس الى الغابة ، لا يقدم شيئاً لمدينته ، ولن يغير شيئاً في العاهرة ، عليه إذن ان يعود ويترك وطنه الصغير المفعم بالانسانية الى وطنه الكبير الذي يخلو منها ، عليه ان يعود الى قلب المجتمع الذي كان السبب الاول في هربه . .

لم تكن طرق النضال ضد الواقع لتغييره ، واقامة واقع بديل واضح امام البطل في البداية ، ما كان بوسع المرسنلي ان يتجاوز مقتضيات شرطه التاريخي ليدرك ان حلمه الفردي ومحاولته بناء عالم في الغابة مواز للعالم في المدينة وخال من كل مشاكله حلم رومانسي رغم ان هروبه الى الغابة لم يكن خروجاً رومانسياً من قسوةالواقع لقد كانت الغابة الفرن الذي جرب المرسنلي نفسه فيه ، احترق في ناره ، اكتشف بطولته النادرة وتميزه العجيب.

ان تغيير العالم واعادة بنائه من جديد ، لا تتم الا بوعي قوانينه العامة ، وادراك طبيعة القوى المتصارعة فيه ، وهذا ما لم يكن متوفراً لدى المرسنلي ، وكل ما عرفه وتعلمه : هو ان الحب رائع ليس بهدفه النهائي فقط بل بكونه يسمح باظهار امكانيات وطاقات الانسان الروحية الخلاقة التي ستساعده على اعادة تغيير العالم وبنائه بشكل صحيح . لقد قدم لنا الكاتب شخصية انسانية ، متوقدة بدت بسيطة ساذجة ثم اغتنت من خلال التجربة والمواجهة ، واصبحت رمزاً لعظمة الانسان رغم عنف القوى المضادة . القامعة لتفتح امكانياته ولتفجير طاقاته الانسانية الموجودة في داخله التي لا تحتاج الا للظروف الصحية لكشفها وتألقها.